Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

المضمون الإيديولوجي في القصص التاريخية الموجّهة للطفل الجزائري

_ شريفة صالحي أنموذجا _

The ideological content of the historical stories directed to the Algerian child

_Sharifa Salehi model _

لامية زعيمن lamia Zaimen، نصيرة عشي Achi Nacira
Lamia.zaimen@yahoo.fr achinacira@yahoo.fr
جامعة مولود معمري تيزي وزو مخبر التمثلات الفكرية والثقافية.
University of Mouloud Mammeri_ Tizi Ouzou_ Algeria, Intellectual and Cultural Representations Laboratory.
المؤلف المرسل : لامية زعيمن / Lamia Zaimen الإيميل: lamia.zaimen@yahoo.fr

تاريخ الاستلام : 2018-11-06 تاريخ القبول : 2019-02-12

ملخص:

يعرف التّاريخ بأنه دراسة علمية موضوعية للوقائع الإنسانية الماضية، يقوم على الإدراك المجرد وهو مادة موجّهة للكبار دون الصغار، ويعد الأدب تشكيلا لغويا ذاتيا موجّه للكبار والصغار ، لكن مع تطور العلوم والمعارف التفتت الدراسات المختصة في أدب الطفل إلى تقديم التّاريخ للأطفال وفق قوالب فنية كالقصة التي تعتبر من بين أشهر الأنواع الأدبية وأكثرها انتشارا بين الأطفال، وهي نمط كتابي قادر على نقل المعرفة التاريخية للطفل، وعلى توليد الاتجاهات المرغوب فيها وترسيخ القيم المعنوية.

وإذا عدنا إلى الدراسات المهتمة بأدب الطفل في الجزائر، والتي أعادت صياغة هذا الزاد الثقافي على شكل قصة تاريخية، نجد شريفة صالحي من أبرز كتّاب أدب الطفل، والتي قدمت نماذج قصصية يدور موضوعها حول تاريخ الجزائر، سعت فيها إلى فرض منظومة من القيم والمعايير تتواصل بها مع الطفل الجزائري، فهذه الكتابات الموجّهة للطفل حمّلتها شريفة صالحي برؤية تاريخية تخدم توجّهاتها الوطنية وتنمي مضامينها الإيديولوجية، وتخلق نمط فكري يحفظ لها هويتها، فكيف تم إذن تمرير هذه الرسائل الإيديولوجية عبر فن القصة لمتلقي (الطفل) يتعالى عليه إدراك هذه المفاهيم الهادفة إلى تعزيز قيم الانتماء والمحافظة على الهوية الجزائرية؟

كلمات مفتاحية: الطفل، الايديولوجيا، الهوية، السرد، القصة التاريخية

Abstract :

History is known as an objective scientific study of past human facts, based on abstract cognition, which is directed at adults without young children. Literature is a self-linguistic form for adults and children, However, with the development of science and knowledge, specialized studies in children's literature have turned the history of children into art forms. The story is one of the most famous and most popular literary types among children. It is a writing style capable of transmitting the child's historical knowledge, generating desired trends and establishing moral values.

If we go back to studies interested in the literature of children in Algeria, which rephrased this cultural form in the form of a historical story, we find Sharifa Salehi who is considered to be one of the most prominent children's literature writers, who presented to us models of stories about the history of Algeria, In which she sought to impose a system of values and standards to communicate by this last with the Algerian child, Sharifa Salehi carried these writings aimed at the child with a historical vision that serves her national orientations and develops her ideological content, creating an intellectual pattern that preserves her identity, so how have these ideological messages been passed through the art of the story to a

recipient who is not aware of these concepts aimed at promoting the values of belonging and preserving Algerian identity؟

Keywords: The child, The ideology, The identity, The narrative, The historical story.

المقدمة:

إن التّاريخ موجه تأسيسي لبناء هوية الأمة والاعتزاز بالروح الوطنية والقومية، وغالبا ما يقدم كمادة للقراءة تستهدف الكبار بالدرجة الأولى، ولما يتسع نطاق القراءة ليشمل فئة الأطفال تصطدم _ هذه الفئة _ بصعوبة في الفهم، وهي صعوبة مرتبطة بجوهر المادة، إذ يستدعي التاريخ معطيات واقعية، ويشتغل على حقائق منطقية، كما يتم بناء مضامينه وفق منطلقات إيديولوجية محددة لكل أمة، والإيديولوجية مصطلح يتعالى على إدراك الطفل.

والمتتبع لكتّاب أدب الطفل في الجزائر يجد أنّهم استلهموا موضوعاتهم من التاريخ الجزائري، وأعادوا تشكيل هذه المادة وفق قوالب أدبية كالقصة باعتبارها من أكثر الفنون الأدبية المحببة لدى الصغار، وتعد شريفة صالحي من أبرز كتّاب أدب الطفل في الجزائر، واتسمت أعمالها باهتمام واضح بالمتن التاريخي الجزائري، وهي تتوسل القصة كجنس أدبي في كتاباتها الموجّهة للأطفال.

فما هو مفهوم القصة التّاريخية؟ وكيف يتم بناء وتشكيل مختلف الآراء والأفكار بأبنية لغوية وسياقات سردية تخدم الوجهة الإيديولوجية للكاتبة؟ وإلى أي مدى يدرك الطفل هذه الرسائل الإيديولوجية الموجّهة له؟

2_الكتابة من التاريخ إلى القصة:

تشير أغلب المفاهيم إلى أن التّاريخ هو " ذلك النوع من المعرفة الإنسانية الذي يستهدف جمع المعلومات عن الماضي وتحقيقها وتسجيلها وتفسيرها، فهو يسجل أحداث الماضي في تسلسلها وتعاقبها ولكنه لا يقف عند تسجيل هذه الأحداث، وإنما يحاول عن طريق إبراز الترابط بين هذه الأحداث وتوضيح علاقة السببية بينها، أن يفسر التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة، وأن يبين كيف حدث هذا التطور ولماذا حدث؟ ".[1]

إن قراءة التّاريخ مسألة في غاية الأهمية بالنسبة للإنسان الذي يمكنه من إدراك ماضيه والبحث عنه وتسجيله والاستفادة منه، كما يرى الدكتور **قسطنطين زريق** أن "الإنسان ليس حيوانا ناطقا فحسب، ولكنه كذلك حيوان تاريخي بأعرق معاني الكلمة وأشملها، أي بإحساسه الأصيل بمجرى الزمن، وبما يحتويه الزمن من أحداث وخبرات ومتطلبات ماضيا وحاضرا ومستقبلا ".[2]

الهدف من قراءة التّاريخ هو التعرف على ماضي الأمم والحضارات وإنجازات السابقين في الزمن القريب أو البعيد، والتاريخ قبل أن يدخل إلى عالم النص أو يصير جزءا من الممارسة الخطابية، كان جملة من الأحداث والوقائع المتناثرة، والتي تفتقد للترابط الذي ينسق المسار الحكائي، وهذا التمثيل الملتبس للكتابة التاريخية جعلها تستدعي آليات السرد التخييلي الذي يصيغ التّاريخ وفق حبكة تنطوي على التّرابط والمعنى معا، وهو ما يعرف عند **بور ريكور (Paul Ricoeur)** بالتحبيك " أي مجموع التنسيقات والترتيبات التي تتحول من خلالها الأحداث المتناثرة والوقائع المتنافرة إلى حكاية منسجمة وذات معنى ".[3]

وكتابة التّاريخ للأطفال ليس بالمهمة السهلة لأن التّاريخ يحمل حقائق مطلقة، ويرتكز على الفكر المنطقي، ومدلوله مرتبط بإدراك الزمان والمكان، والطفل بحكم طبيعته التي تجنح إلى الخيال اللّامحدود يتعذر عليه إدراك المقومات المؤسسة لعلم التّاريخ، لذلك يلجأ الكتّاب _وكتّاب أدب الطفل في الجزائر خصوصا_ إلى الاستعانة بأشكال أدبية فنية لتقديم هذه المادة

العلمية بصيغة جمالية، تتيح للطفل التعرف عليها، وفهم مدلولاتها.

وتعتبر القصة من أكثر الأجناس الأدبية انتشارا وشيوعا بين الأطفال، والتي من خلالها يتم تقديم مادة التّاريخ لاعتمادها على أدوات فنية تلبي رغبة الطفل.

يعرف **"معجم المصطلحات الأدبية"** القصة بأنها " سرد واقعي أو خيالي لأفعال، وقد يكون نثرا أو شعرا يقصد به إثارة الاهتمام والإمتاع أو تثقيف السامعين أو القراء " [4] ،وتتناول القصة مضامين وموضوعات مختلفة، وتنقسم إلى عدة أصناف، وتعد القصة التّاريخية أحد أنواعها، وتعرف في أدب الطفل بأنها " القصة التي تؤكد اتصال الماضي بالحاضر من خلال سرد حكايات التاريخ الماضي، وهي تحكي التصور للأحداث الماضية وتصل شخصياتها بالحاضر وتنمي الشعور والاعتزاز بالماضي التاريخي وهي واسطة في تربية الشعور التاريخي والوطني عند الأطفال ".[5]

من المفهومين السابقين للتّاريخ والقصة نجد أن طبيعة التّاريخ تقتضي الاعتماد على العقل والتفسير المنطقي وتتوخى الصدق والموضوعية في نقل الحقائق التّاريخية، بينما تتميز القصة بخاصية التّخيل وتمثيل الواقع تمثيلا ممزوجا بالحقيقة والخيال، لهذا يقدم التّاريخ للأطفال على شكل قصة لأن طبيعة الطفولة ترزح إلى العالم الخيالي وتبتعد عن التجريد والمنطق " إذ أن هذا يغلق أبواب الخيال لدى الأطفال، الأمر الذي يقتل فيهم القدرة على الإبداع، ولا بد من أن نبذل جهدا خارقا للجمع بين الأمرين معا، وأن نمضي في توسيع قدراتهم على التّخيل مع حشو أذهانهم بالمعرفة المبسطة، ولا يجب أيضا أن تطول فترة الخيال في حياتهم، مما يتطلب مقدرة من المؤلفين تتسم بميزان بالغ الدقة ".[6]

إن ارتباط الخيال بالواقع عند الطفل يشكل حاجزا في نقل التّاريخ الذي يصبو إلى عزل الخيال عن الواقع ويرسم أهدافه انطلاقا من واقعية الأحداث والبحث عن كل ما يبرهنها، وغالبا ما يتم مسار بناء كتابة التّاريخ وفق موجّهات إيديولوجية للمؤرخ الذي يريد أن يعيد بناء الأحداث كما وقعت ليضع في الواجهة تلك التي تخدم توجهاته الفكرية، ويسكت عن تلك التي تتعارض معها، لذا قلما نجد مؤرخا يكتب عن انهزام أمته بتمجيد انتصار أعدائه، فكتابة التاريخ ترتبط لا محالة بالإيديولوجيا، ولعل مقولة "التاريخ يكتبه المنتصرون" تملك هنا كل توضيحاتها لما نذهب إليه.

3_الأدب والإيديولوجيا:

تفرض الإيديولوجيا نفسها في الواقع بوصفها نظام فكري أو نظرية تقدم رؤية شاملة للمجتمعات والمعتقدات والخبرات الإنسانية وتتسلل في زعزعة موقف الإنسان من التّاريخ والواقع، وذلك بتمثلاتها الفنية والأدبية، فالأدب وسيلة فعالة ومثمرة لتمرير القيم وغرسها في فكر المتلقي وتشكيل وعيه بمجتمعه.

يختلف مفهوم الإيديولوجيا باختلاف المنظور الفكري الذي يتبناه الفلاسفة والمنظرون والنقاد، فالإيديولوجيا بمعناها العام هي نظرية في الأفكار، أما **كارل مانهايم (Karl Mannheim)** فيرى أن مفهوم الإيديولوجيا يطرح نوعين من الاستعمالات:

فالمعنى الجزئي لها يتمثل عندما " نتخذ موقفا متشككا تجاه الأفكار والتصورات التي يتقدم بها خصمنا، إذ نعتبرها تمويهات واعية بدرجات متفاوتة، تخفي الطبيعة الحقيقية لوضع لن يكون الاعتراف بحقيقته متفقا مع مصالح هذا الخصم "[7]، إذ يتأسس هذا المعنى على مبدأ الشك في صدق أراء الخصم الذي يقوم بتشويه الحقيقة وتمويه الواقع، وقد تمثلت القاصة **شريفة صالحي** في قصصها حول تاريخ الجزائر موقفا متشككا اتجاه السياسة الفرنسية، التي تقوم على تحريف الحقائق وتزييفها، حيث تفضح (القاصة) صورة الخصم وتظهر دوافعه الأنانية فتتكون هذه الصورة لدى الطفل بكونها وعي زائف وأكاذيب تستبعد البعد الإنساني من مرجعياتها، فيزدري هذا الفكر غير الواقعي، تقول **شريفة صالحي** في قصة **(يوم العلم وعبد الحميد بن باديس)** على لسان شخصياتها "الجدة: نعم يا أبنائي، الاستعمار متناقض مع نفسه، ففي نفس الوقت الذي ينادي فيه ويؤكد على حرية الفرد، وحقوق الإنسان في بلاده، يهيمن على الدول الضعيفة ليستعبدها ".[8]

تستعين **شريفة صالحي** في هذا المقطع السردي بأفراد اجتماعيين ملموسين (الجدة/الأبناء) فذواتهم مستنبطة من واقع الطفل، حيث يكون هناك نوع من الربط بين القصة (كخيال) والواقع بالنسبة للمتلقي الصغير، مما يترك انطباعا لدى الطفل الذي يجد نفسه أمام عالم افتراضي (عالم النص)، فيحاول أن يماثله بواقعه.

وبهذا اتخذت **شريفة صالحي** شخصية الجدة كراوية تستدل بها لتأكيد مصداقيتها، يقول **إمبرتو إيكو** (**Umberto Eco)** " ترتهن كمية المعلومات في مرسلة ما أيضا بوعيي في وضع ثقتي إلى حد ما في من يخبرني " [9]، فالقاصة **شريفة صالحي** أقامت ثقتها على شخصية الجدة كراوية في الأسرة الجزائرية، فنصّبتها لتكون محركة للأحداث في قصتها ومادامت في نظر الطفل مصدر الحكايات، فإنها تمارس سلطتها عليه من خلال ما تتلفظ به

أما المعنى الكلي، فيشير إلى " إيديولوجيا عصر ما أو إيديولوجيا جماعة تاريخية_اجتماعية محددة، كايديولوجيا طبقة مثلا، عندما يكون هدفنا هو أن نوضح سمات وتركيب البناء الكلي لعقلية ذلك العصر أو هذه الجماعة ".[10]

يهتم المعنى الكلي للإيديولوجيا بإضفاء النزعة الشمولية على فكر معين، باعتباره قوة محركة لمصالح الدولة التي تجمع مصالح الأفراد تحت رايتها، فتحتكر بذلك القرارات وتجنب سياستها المعارضة، ويتضح هذا المفهوم في قصة **شريفة صالحي (يوميات أشبال الثورة)** من خلال المقطع السردي التالي " واصلت الجدة حديثها قائلة: استمرت الثورة داخل الوطن وخارجه، عقدنا العزم على ألا نتراجع عما عزمنا عليه مهما أوتي الاستعمار من وحشية ومهما بالغ في جرائمه وتعذيبه وتنكيله، فالأمة الجزائرية لا ترهبها قوة، ولا نهر السين، ولا تنال من عزيمتها المقاصل، ولا تزعزع إرادتها الطائرات والدبابات، بل يزيدها ذلك صمودا ".[11]

يسعى النص القصصي إلى تمثيل نظرة كلية شمولية حول الظروف التاريخية والاجتماعية التي عاشتها الجزائر إبان الثورة التحريرية ليطابق التركيبات الذهنية المختلفة حول منظور واحد يتجه إلى خدمة الرأي العام.

إن الأدب بمختلف أشكاله هو أحد الحقول المهمة التي تحتوي الإيديولوجيا، إذ يعتمد على اللّغة التي تعتبر مادته في تكوين أنساق تعبيرية، متخذا من عملية الهدم والتفكيك والتشويه لوحداتها الأولية منطلقا يعيد صياغتها وفق أساليب كتابية جديدة، فالكاتب في لحظات إبداعه يجد أمامه تجربته الحياتية بمختلف أبعادها فيتمثلها في عمله الإبداعي، يرى **كمال أبو ديب** أن الكتابة " فعل لغوي والفعل اللغوي في كل أبعاده فعل اجتماعي، فهو إذن فعل إيديولوجي ".[12]

فتجربة الفرد الواحد لا تكفي لإنتاج بنية ذهنية كاملة ودالة على الشمولية لأنها محدودة بفكر الكاتب وحده، وهي تستمد قوتها من الجماعة التي تنتمي إليها، لأن الأدب نشاط اجتماعي، تندمج فيه التجارب المتعددة حتى تكون كتلة متراسة من التمثلات الذهنية والفكرية.

فالكاتب لا يخرج عن نطاق الجماعة، ولعل أكبر دليل على ذلك هو استعماله للغة الجماعة التي ينتمي إليها، إذ قلما يلجأ كاتب إلى لغة غير لغة جماعته للتعبير والتواصل.

إن اللّغة ليست تركيبا لمجموعة من العلامات، والمعنى لا يؤسس من مجرد تجميع وتنسيق لوحدات دلالية والكشف عن استراتجياتها الجديدة، وإنما هي صورة مرسومة بشكل مسبق، فيصير دور هذه الوحدات تأكيد رؤية وإثبات موقف ينم عن وجهة الكاتب، تقول **شريفة صالحي** في قصة **(صدى السنين)** في حوار جرى بين الأحفاد والجد، يقول الأحفاد: " وهل بمقدور جيش التحرير أن يقهر هؤلاء المجرمين؟ " [13]، فرد عليهم الجد " أجل، يا أبنائي، وآن الأوان لفرنسا الاستدمارية أن تفهم أن الشعب الجزائري شعب أبي لا يرضى ولن يرضى بمعيشة الذل والهوان، جيشنا جيش باسل، عزم على تحرير وطننا، ولن يتراجع مهما كلفه ذلك ".[14]

فهذا الخطاب يملك وحدات معجمية محملة بقصدية دلالية كامنة وراء كلام الشخوص، ففيه اعتزاز بجبهة التحرير الوطني المفجرة للثورة التحريرية والتي تعد أحد أهم معطياتها الإيديولوجية، فالمتكلم في النص فرد اجتماعي ملموس ومحدد تاريخيا ولغته لغة اجتماعية، لا تشتمل على الخصوصية أو الفردية، وإنما تنزع إلى إنتاج إيديولوجيتها، نلمس ذلك أيضا من

المقطع الحواري التالي من قصة **(صدى السنين)** " وقبل أن تبسط فتيحة الحصير أردف الجد قائلا وهو يشير بأصبعه: ابسطيه هنا قبالة العلم، سألته فتيحة باندهاش: ولماذا يا جدي؟ رد عليها: لأمتع نظري بألوانه الأبيض والأحمر والأخضر، لطالما كانت هذه الألوان محرمة علينا، كان حلمي أن أرى علم بلادي وهو يخفق مرفوعا عاليا (...) ولقد تحقق الحلم يا بنيتي، أجابته: ولكن العلم ما هو إلا قطعة قماش بألوان مختلفة، غضب منها جدها غضبا شديدا ورد عليها بلهجة صارمة والدموع متحجرة في مقلتيه: عيب يا بنيتي عيب أن يصدر منك كلام كهذا، ودماء الشهداء لم تجف بعد، إنّ العلم رمز من رموز الدولة الحرة المستقلة، إنّه رمز السيادة (...) شعرت فتيحة بخجل شديد، فاعتذرت لجدها".[15]

إذا سلمنا بأن أقوال الشخصيات (الجد/ فتيحة) يعبر عن التعدد اللساني الناتج عن تداخل الحوارات الاجتماعية، إلا أنّ بناء الخطاب هنا ركز على تأكيد الموقف الإيديولوجي على حساب الموقف الواقعي، إذ أن ما تلفظت به الحفيدة كلام منطقي، وهو أنّ العلم قطعة قماش بألوان، إلّا أن الإجابة التي قدمها الجد إجابة إيديولوجية استعمل فيها التبرير التاريخي بإشارته إلى تضحية الشعب من أجل العلم، وأنّه أكثر من قطعة قماش، فهو رمز الدولة، وذلك تبعا لما ورد في دستور الجزائر " العلم الوطني و النشيد الوطني من مكاسب ثورة أول نوفمبر 1954، وهما غير قابلين للتغيير، هذان الرمزان من رموز الثورة، هما رمزان للجمهورية بالصفات التالية: 1_ علم الجزائر أخضر وأبيض تتوسطه نجمة وهلال أحمر اللون، 2_ النشيد الوطني هو قسما بجميع مقاطعه ".[16]

وأردفت القاصة **شريفة صالحي** الموقف بانفعال عاطفي من خلال تأهب الجد للبكاء، وهو ما يستدعي مشاركة عاطفية للحفيدة مع جدها، لذا نلاحظ أن الموقف الإيديولوجي استدعى التاريخ والعاطفة معا.

إن النص " الذي يشتمل على مجموعة من الأصوات السردية (...) معرض أكثر من غيره للسقوط في التناقضات، وأن يصاب بشروخ في نسيجه التأويلي ".[17]

وبالفعل فإن متلقي هذا النص يجد مستويين متناقضين: مستوى خطاب الجد الانفعالي الإيديولوجي ومستوى خطاب الحفيدة الواقعي البحت، وهو يشير إلى غياب الإيديولوجيا عن ذهن الطفل وأن مسألة تبليغها له تتجاوز المستوى الواقعي.

لكن المقطع السردي السابق لا يعرف سلطة واحدة تؤول تأويلا مباشرا، وإنما نلمس تعدد الشخوص الذي يدل على تعدد اللغات، وبالتالي اختلاف وجهات النظر، حيث تمنح للشخوص في النص القصصي الحرية والحق في التعبير عن أفكارها من خلال الحوارات التي تحقق نوعا من الصراع الذي يكسب النص رؤية أكثر شمولية للواقع، فالشخصيات تتوفر على نوع من الاستقلال الأدبي والدلالي عن طريق أقوالها وتدخلاتها في مسار السرد لتكسير نوايا الكاتب.

لكن تقنية (الحوار) التي اتخذتها **شريفة صالحي** في قصصها لا تعبر عن الآراء المتصارعة في النص القصصي، بل تستدعي أصوات سردية متجاورة فيما بينها، فهذه الأصوات اللّغوية وسيلة تتخذها القاصة لتكسير لغتها حتى لا تبدو فيها سمة الحرفية والأحادية، تقول في قصتها **(يوميات أرملة وابنها اليتيم)** " كاميليا: اعذريني يا جدتي إذا استوقفتك أثناء سردك الأحداث لأستفسر عما وقع ولاسيما فيما يخص جدّي سعيدًا وفضائع الاستدمار؟ الجدة: معك حق وعذرك مقبول يا عزيزتي فهذا يدل على مدى تعلقك بوطنك واهتمامك بتاريخه وتعطشك لمعرفته دليل قاطع على وطنيتك الخالصة الصادقة ".[18]

فكلما غاب صوت السارد زاد تأويل الدلالات، لكن ما نلمسه في المقطع السردي السابق هو تميزه باللّغة المشتركة الفاقدة للتّنافرات والتّناقضات الاجتماعية، فهي تشتغل في الخطاب كوحدات دلالية مقلصة تخدم غاية واحدة تحد من الانتشار الدلالي لتخلق بذلك إستراتجية موحدة حول وجهة نظر معينة " ويشكل هذا الكون داخل البناء خطا تأويليا تكمن وظيفته في تقليص أقصى للغموض الذي قد يصيب القصة ومنحها معنى أحاديا "[19]، وبهذا فالقاصة **شريفة صالحي** لم تحطم المنظورات والعوالم والرؤى، بل أدخلتها إلى عالمها ولكنها متسترة تحت أصوات الشخصيات، فمجموع الأصوات التلفظية التي ينهض عليها النص القصصي تندمج وتدغم تحت خطاب

أحادي الصوت، أي يشكل في مجموعه خطابا موحدا لا يجد من يقاومه من خطابات الآخرين المعارضة له.

وبهذا يرتكن السرد في القصة التّاريخية الموجّهة للطفل إلى تعريف أحادي للتجربة من خلال صوت السارد المتخفي وراء أقوال وأفعال الشخصيات، مما يوحد بهذا الأبعاد المكونة للتجربة الإنسانية.

إنّ القاصة **(شريفة صالحي)** تؤسس المنظور الوطني للطفل من خلال أقوال وأفعال الشخصيات التي تمثل السلطة على سلوكاتها وأقوالها، فلا يتحركون إلا بما تمليه عليهم، ولا يتكلمون إلا بما تتفوه به، تقول في مقطع سردي أخر من قصة **(يوميات أشبال الثورة)** " أفرغ العدو كل ما كان لديه من ذخيرة على المتظاهرين فلفظت خالتي (عيشة) أنفاسها وهي محتضنة العلم الجزائري الذي خضب بدمائها الزكية الطّاهرة، بعدما أشبعته قبلات حارة وهي تردد: سأموت ولكن يبقى علم بلادي مرفوعا، وتعيش الجزائر حرة ".[20]

فالشخصية في النص القصصي تدخل ضمن إستراتجية المؤلف التي يضعها في الواجهة وتكون معدة سلفا لمثل هذه الحرية النسبية في أقوالها وأفعالها.

وبهذا فالنصوص القصصية الموجّهة للطفل تتمتع بأحادية الصوت الذي يسعى إلى إبراز رؤية واحدة هي رؤية الكاتب، حيث تبدو أفكاره صائبة في كل معنى من المعاني المتجلية في النصوص، بمقابل رؤى الغير (إيديولوجيا الغير/ فرنسا) التي يعتبرها مجانبة للصواب، فالشخصيات المتمثلة في النصوص السردية لا تخضع للصراع الإيديولوجي، وإنما تتكافل في ما بينها لتنتصر لفكرة الكاتب، فيستعملها كأدوات فنية تحافظ على الوحدة الدلالية لمقولاته.

4_ الهوية السردية كموجه إيديولوجي:

إن السّرد تجسيد أو تعبير عن خبراتنا وتجاربنا، وهو طريقة لنقل أفكارنا للغير والتواصل مع الأخر، وهو شكل من أشكال فهم العالم، فالقصص هي منتوجات جماعية تدخل ضمن دائرة الظروف والأفعال الاجتماعية " ذلك أن سردية الأمة تشكل الناس وتجمعهم معا بوصفهم موضوعاتها التي تشترك في تجربة تاريخية مشتركة، وكذلك بوصفهم ذواتها الفاعلة ".[21]

تقول **شريفة صالحي** في قصة **(يوميات أرملة وابنها اليتيم)** على لسان إحدى شخصياتها " هزت الجدة رأسها مبتسمة: لم ينجو أحد من همجية الاستدمار، سأحكي لك يا بنيتي عما قاسيته في تلك السنين، وما أحكيه عني ينطبق على الأمة الجزائرية كلها ولا يساوي قطرة من بحر، لقد وقعت جرائم كثيرة راح ضحيتها الآلاف من المواطنين الأبرياء العزل ".[22]

نتأمل في هذا المقطع السردي مطابقة بين التّاريخ الفردي (حياة الذات /الجدة) والتّاريخ الجمعي حيث تحاول (الجدة) ربط تجربتها بتجربة الجماعة، فعلى الرغم من ذاتية الفعل التذكري في استدعاء ما مضى (سأحكي لك يا بنيتي عما قاسيته في تلك السنين) إلا أنه ذو بعد جماعي يمارس داخل المجتمعات والأسر ليحافظ على استمراريتها ويؤسس هويتها، وفي نفس القصة **(يوميات أرملة وابنها اليتيم)** تقول القاصة **شريفة صالحي** على لسان الجدة " لكل أسرة قصة، ولكل فرد منها مواجع وألام، فكل شبر من أرضنا يشهد على مواقف بطولية وأحداث مأساوية لتلك السنين السود التي بلغ فيها المحتل أوجه في الظلم والطغيان ".[23]

تحلينا الملفوظات الواردة في المقطع السردي (مواجع، ألام، مأسوية، كل فرد، كل أسرة) إلى دلالات المعاناة والأحزان المشتركة التي عاشها الشعب الجزائري خلال الفترة الاستعمارية، فهذه المآسي المشتركة توحد بين أفراد المجتمع أكثر مما يوحد بينها السرور، وبهذا سعت القاصة **(شريفة صالحي)** إلى بناء الهوية استنادا إلى ذاكرة المآسي الجمعية، التي تروم (الذاكرة) إلى تعرية وكشف واقع وحقيقة الجرائم الاستعمارية في حق الشعب الجزائري.

ويعلل الإنثروبولوجي **روديجر شوت (Ruediger Schott)** بأن اتجاه الجماعات نحو الماضي بالبحث " عن دعامات وركائز يستند إليها وعيها بوحدتها وبتفردها وبخصوصيتها في أحداث ماضيها، المجتمعات تحتاج إلى الماضي لغرض التعريف بذاتها في المقام الأول، ولكي تعطي تعريفا ذاتيا لكنهها، ولكي تبرر وجودها في التاريخ ".[24]

فالهوية الجماعية هي هوية نابعة من أفراد ينتمون إلى جماعة معينة وينظرون إلى ذواتهم كأعضاء يتمثلون معايير مشتركة وقيما وطنية تدافع عن أصالتهم، ويتمثلون رموزا تطور من شعورهم الانتمائي، تقول **شريفة صالحي** في قصة **(يوم العلم وعبد الحميد بن باديس)** " صهيب: ما معنى طمس الهوية يا جدتي؟. الجدة: معناها يا بني محو ديننا ولغتنا وإحلال المسيحية واللغة الفرنسية محلهما، وهكذا يقضي على ثقافتنا الجزائرية والإسلامية ".[25]

يوجه التّاريخ في هذه القصص إلى تأسيس الهوية الجزائرية، فالهوية ليست معطى جاهزا لأنها خاضعة لجملة من التغيرات والتّحولات التي تمس كيانها، لذلك تسعى الكاتبة في قصصها إلى حمايتها من الانحسار والانشطار، وذلك بتغذيتها من مقولات الماضي ومن رموز الأصالة التي حفظتها الذاكرة التاريخية، وبهذا تضمن استمراريتها وأصالتها، وفي مقطع سردي أخر من قصة **(يوميات أرملة وابنها اليتيم)** تقول: " واصلت الجدة حديثها بقولها: وهكذا يا بنيتي عشنا عقودا من الزمن عيشة صعبة، حياة مرة كالعلقم، عم فيها الظلام والجهل والفقر والمرض واشتد الخوف، ومع ذلك ورغم كل المآسي عاش الشعب متكاتفا شعاره الجزائر وطننا والعربية لغتنا والإسلام ديننا، ظللنا نكابد ونكافح إلى أن فتح الله علينا بالنصر المبين ".[26]

فالقاصة **(شريفة صالحي)** لم تخرج عن الثوابت الإيديولوجية المتعلقة بالهوية الجزائرية والتي تلخصها مقولة عبد الحميد بن باديس " الجزائر وطننا، الإسلام ديننا، والعربية لغتنا " غير أن الطفل الجزائري حاليا يتلقى خطابا إيديولوجيا معدلا خاصة بإضافة البعد الأمازيغي، كما ورد في الدستور المادة 4 " تمازيغت هي كذلك لغة وطنية ورسمية تعمل الدولة لترقيتها وتطويرها بكل تنوعاتها اللّسانية المستعملة عبر التراب الوطني، يحدث مجمع جزائري للغة الأمازيغية يوضع لدى رئيس الجمهورية، يستند المجمع إلى أشغال الخبراء ويكلف بتوفير الشروط اللّازمة لترقية تمازيغت قصد تجسيد وضعها كلغة رسمية فيما بعد " [27] وهو ما سيجده كذلك في الخطابات المدرسية ويدل على ذلك النص الوارد في كتاب التاريخ للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي " المكونات الأساسية للهوية الوطنية: الإسلام، العروبة، الأمازيغية " [28]، غير أن الخطاب الوارد في القصة كان منسجما مع السياق التاريخي آنذاك، ولكنه قد يصطدم الآن بواقع مختلف، الأمر الذي قد يسبب تلقي ناقص لمفهوم الهوية الجزائرية عند الطفل الجزائري.

فالخطابات السردية التّاريخية الموجّهة للطفل تسعى إلى ترسيخ مفهوم الثورة الجزائرية وتمجيد أعلامها ومقولاتها واتخاذها وسيلة لحماية الطفل الجزائري من التيارات الخارجية وسلاح دفاعي عن هويته ووطنيته، يقول **كانتويل سميث (Kantwell Smith)**" إن علم التاريخ في الثقافة العربية المعاصرة سلاح دفاعي أكثر منه منهج بحث وتقصي الوقائع ".[29]

وفي مقطع سردي أخر تقول **شريفة صالحي** في قصتها **(صدى السنين)** " وفي يوم خمسة جويليا احتفلت الجزائر بعيد النصر عيد الحرية والاستقلال، وكان سي محمد يمشي بين الحشود مرفوع الرأس مفتخرا ومعتزا بأبنائه الذين قدموا أنفسهم فداء للوطن، كما كانت سعدية فخورة ومعتزة بما قدمته الأسرة رجالا ونساء كبارا وصغارا من تضحيات ".[30]

إن الإطار المرجعي للشخصيات الواردة في هذا النص السردي مرتبط بذات جماعية هي الشعب الجزائري، إلا أنها تخضع لتخصيص إيديولوجي حتى يتم تقريبها من وعي الطفل، ولعل اختيار الأسماء له ما يبرره في هذا الصدد، إذ تم استعمال أسماء تملك دلالة دينية (محمد/ سعدية)، فهذه مؤشرات عن الانتماء الإسلامي للجزائر، بالإضافة إلى البعد الثقافي الشعبي الجزائري من خلال لفظة (سي) وهي كما نعرف تستعمل في الوسط الجزائري العامي للدلالة على (السيد).

فالاحتفالات التخليدية التي تقوم بها الدولة وترسخها الكاتبة في نصوصها القصصية الموجّهة للطفل الجزائري تؤصل للعلاقة القائمة بين الحدث المؤسس مثل (5 جويلية) والتخليد الاحتفالي " إن وظيفة الإيديولوجيا في هذه اللحظة هي نشر الاقتناع بأن تلك الأحداث المؤسسة هي عناصر مكونة للذاكرة الاجتماعية ومن خلالها للهوية نفسها " [31]، ومن هنا تكتسب كثيرا من القدسية بفضل هذا التكرار، وما يصاحبه من طقوس ومراسم، تقول **شريفة صالحي** في قصة **(يوم العلم وعبد الحميد بن باديس)** على لسان إحدى شخصياتها (كاميليا) عن الاحتفالات التي تقام في المدارس يوم 16 أفريل من كل عام

تخليدا لهذه الذكرى " كاميليا: إن الحفل كبير، ستعرض فيه بعض أعمال ونشاطات التلاميذ المبدعين منهم والمبتكرين، وسوف تقام منافسة فكرية ومباراة رياضية بين مدرستنا ومدرسة أخرى "[32]، وهذا ما يعرف عند **لوي بيير ألتوسير (Louis Pierre Althusser)** بأجهزة الدولة والتي يقسمها إلى نوعين " أجهزة الدولة القمعية والقهرية: الحكومة، الإدارة، الشرطة، المحاكم، السجون، وما إلى ذلك، والثاني هو أجهزة الدولة الإيديولوجية: الدين، التعليم، العائلة، النظام السياسي، الاتصالات، الثقافة وما إلى ذلك " [33]، فالجهاز الأول يعيد إنتاج السلطة بأدوات العنف المادي والقمع المكشوف، لكن الجهاز الثاني يلجأ إلى أدوات ناعمة أو مقنعة، وبهذا تضفي الدولة الشرعية على سلوكاتها، والأدب يندرج ضمن أجهزة الدولة الناعمة.

تمثل الممارسات التي تعبر عن كيان الدولة سلطة تكرس مقولاتها وتمجد أحداثها ووقائعها، ففي هذه القصص التّاريخية الموجّهة للطفل الجزائري أضفت القاصة **(شريفة صالحي)** القداسة على أحداث تاريخ الجزائر وأبطال الثورة الجزائرية، ويمكن أن نصطلح عليها بالمقدسات المدنية التي تدخل دائرة المحرمات، فلا يمكن تجاوزها أو المساس بها أو التشكيك في صدقها، وتعرف هذه الظاهرة عند بور ريكور **(Paul Ricoeur)** بالدين العلماني، حيث تكون كل جماعة بشرية بحاجة إلى نوع من المقدس المدني مطبوع بتخليد المناسبات وإقامة الحفلات ونشر الأعلام وبكل الحماس التبجيلي الذي يرافق هذه الظواهر. [34]

فالإيديولوجيا تقوم بدور إدماج الأفراد ضمن الذاكرة الجماعية، وأن يتماهوا مع الأحداث والآباء المؤسسين للهوية، أو الذين قاموا بالثورة وحققوا الانتصار والوحدة الوطنية، تقول **شريفة صالحي** في قصة **(يوميات أشبال الثورة)** " كاميليا باندهاش وتعجب: ماذا؟ أراد أن يحتفظ بالصحراء؟ إنه شيء عجيب، رد (الأب) قائلا: أجل يا بنيتي، ولكن أبت الأمة الجزائرية المساومة، وأبت أن تتخلى عن أي شبر من أرضها لغيرها، فالجزائر كلّها لنا وفرنسا عدو مستبد وظالم، ولن نرضاه قيما علينا ووجوده غير مرغوب فيه، وأنه دخيل لا بد من طرده ". [35]

فالايديولوجيا في النص ليست مجرد تعبير عن إرادة، وإنما هي وسيلة تبريرية للحفاظ على الأمن الوطني والتلاحم الداخلي للأمة، فتقوم الإيديولوجيا بتحريك المشاعر وتدفع الفرد للذوبان في الجماعة، وإلى استخدام العنف ضد من يناهض هذه الجماعة أو يمس وحدتها، تقول القاصة **(شريفة صالحي)** واصفة فعل الخيانة الوطنية على لسان شخصيات القصة **(صدى السنين)**" حليمة: أتعني إبراهيم؟. خالد: أيوجد سواه؟ إنه العدو اللّدود لأبناء جلدته، والصديق الوفي المخلص للسلطات الاستدمارية، أف من هذه البراغيث، ومن هذه الطفيليات التي مصت دمنا ونهشت لحمنا، لن ألتحق بالجيش الفرنسي ". [36]

إن الخطاب الوارد في هذا المقطع السردي من القصة ركز على إثارة عاطفة الاشمئزاز والنفور من الخائن، وذلك حين شبهه بالبراغيث والطفيليات، والطفل غالبا ما يخاف من الكائنات التي تشكل خطرا على صحته وعلى جسده، ويقدم الاستنتاج من المشابهة والمتمثل في رفض الالتحاق بالجيش الفرنسي.

إن الكفاح من أجل السيادة الوطنية لا يتوقف على الاستقلال التام والتخلص من الاستعمار الفرنسي، وإنما يعقبه مجهودا يساهم في البناء الوطني، متخذا من المنطلق الايديولوجي وسيلة لتجميع طبقات مختلفة ومتباينة تحت لواء واحد، تقول القاصة **(شريفة صالحي)** في قصة **(صدى السنين)** " قبل أن نفترق أغمض المجاهد عينيه، وهو يردد بحرارة: ما أثمنك، وما أغلاك يا وطني، كانت أمنيتنا أن نراك حرا مستقلا، وكنا نراه بعيدا، فإذا بالحلم أصبح حقيقة، ها نحن اليوم في بداية الطريق، نأمل أن نبقى معك أوفياء مخلصين ونتفانى في خدمتك ونسعى في ازدهارك ورقيك، ولا نقصر في حقك حتى نحافظ عليك، إنك مكسب غال، غال جدا ". [37]

فكما يرى **أريكسون (Erikson)** أن الإيديولوجيا التي هي مؤسسة اجتماعية حارسة الهوية [38]، هذه الهوية التي قامت **شريفة صالحي** بتأطيرها الإيديولوجي بداية من ثورة التحرير إلى غاية الاستقلال لنفهم أن القصد من القصة التّاريخية عندها يتجاوز مستوى حفظ الوقائع وتلقين أحداث التّاريخ للأطفال، إذ يصير الهدف رسالة مبطنة يفهم من خلالها الطفل أنّه طرف لاحق لهذا التّاريخ و مسئول عن ما تلقاه من أخبار، وينتظر منه الرد حين تدرجه القاصة في ضمير المتكلم للجمع من خلال كلمات: أمنيتنا، نأمل، نسعى، نتفانى، لا نقصر.

5_**خاتمة:**

من هذا المنظور يتضح لنا أن القصص التّاريخية **لشريفة صالحي** الموجّهة للطفل الجزائري تتبنى إيديولوجيا واحدة فيها دعوة للحفاظ على مبادئ وقيم الثورة الجزائرية، وتعزيز مقولاتها وتعظيم أحداثها ووقائعها، ومن جهة دحض فكرة الاستعمار الفرنسي، ونبذ سياسته التّعسفية والقمعية، فالايديولوجيا أدت موقفها في النص القصصي على أنها عنصر من عناصر تشكيل الهوية الوطنية الجزائرية لدى الطفل.

الهوامش:

[1]– رأفت غنمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د ط، د س،ص ص 10_11.

[2]– عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، د ط، 1998، ص115.

[3]– نادر كاظم، الهوية والسرد (دراسات في النظرية والنقد الثقافي)، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت، ط 2، 2016، ص130.

[4]– إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، د ط، 1986، ص273.

[5]– عبد الفتاح أبو معال، أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2005، ص155.

[6]– عبد الفتاح مصطفى غنيمة، حاجات الطفل للنفس والبدن (الأدب والفن والموسيقى والمهارات)، رواي للطباعة والنشر والإعلان، د ب، ط 2، 1994، ص47.

[7]– كارل مانهايم، الإيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سيوسيولوجيا المعرفة)، تر: محمد رجا عبد الرحمن الديزيني، شركة المكتبات، الكويت، ط 1، 1980، ص129.

[8]– شريفة صالحي، يوم العلم وعبد الحميد بن باديس، المكتبة الخضراء، الجزائر، د ط، د س، ص21.

[9]– فانسون جوف، أثر الشخصية في الرواية، تر: لحسن أحمامة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط 1، 2012، ص223.

[10]– كارل مانهايم، الإيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سيوسيولوجيا المعرفة)، تر: محمد رجا عبد الرحمن الديزيني، ص129.

[11]– شريفة صالحي، يوميات أشبال الثورة (11 ديسمبر 1960)، المكتبة الخضراء، الجزائر، د ط، 2012، ص51.

[12]– الذهبي اليوسفي، الأدب والإيديولوجيا في النقد العربي الحديث، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط 1، 2016، ص21.

[13]– شريفة صالحي، صدى السنين، المكتبة الخضراء، الجزائر، د ط، د س، ص93.

[14]– المرجع نفسه، ص93.

[15]– المرجع نفسه، ص ص99_100.

[16]– دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، رئاسة الجمهورية، الأمانة العامة للحكومة، مارس 2016، ص3.

[17]– سعيد بنكراد، النص السردي نحو سيميائيات الإيديولوجيا، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط 1، 1996، ص83.

[18]– شريفة صالحي، يوميات أرملة وابنها اليتيم (بعد مجازر 8 ماي 1945)، المكتبة الخضراء، الجزائر، د ط، 2012، ص11.

[19]– سعيد بنكراد، النص السردي نحو سيميائيات الإيديولوجيا، ص83.

[20]– شريفة صالحي، يوميات أشبال الثورة (11 ديسمبر 1960)، ص41.

[21]– نادر كاظم، الهوية والسرد (دراسات في النظرية والنقد الثقافي)، ص132.

[22]– شريفة صالحي، يوميات أرملة وابنها اليتيم (بعد مجازر 8 ماي 1945)، ص11.

[23]– المرجع نفسه، ص4.

[24]– يان أسمن، الذاكرة الحضارية (الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى)، تر: عبد الحليم عبد الغني رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط 1، 2003، ص245.

[25]– شريفة صالحي، يوم العلم وعبد الحميد بن باديس، ص8.

[26]– شريفة صالحي، يوميات أرملة وابنها اليتيم (بعد مجازر 8 ماي 1945)، ص ص 9_10.

[27]– دستور الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، رئاسة الجمهورية، الأمانة العامة للحكومة، مارس 2016، ص 3.

[28]– فاطمة بومعراس وعيسى زروال،كتابي في التاريخ، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، 2015_2016، ص12.

[29]– عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1995، ص12.

[30]– شريفة صالحي، صدى السنين، ص112.

[31]– نادر كاظم، الهوية والسرد (دراسات في النظرية والنقد الثقافي)، ص80.

[32]– شريفة صالحي، يوم العلم وعبد الحميد بن باديس، ص4.

[33]– بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، 2001، ص ص 204_205.

[34]– بتصرف، بور ريكور، من النص إلى الفعل (أبحاث التأويل)، تر: محمد برادة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، د ب، د ط، 2001، ص230.

[35]– شريفة صالحي، يوميات أشبال الثورة (11 ديسمبر 1960)، ص52.

[36]– شريفة صالحي، صدى السنين، ص ص 41_42.

[37]– المرجع نفسه، ص109.

[38]– بتصرف، بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، تر: فلاح رحيم، ص348.